﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 12 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مَنْ قدَّر البَعْثَ للعباد هو مَنْ ابْتدأ خَلْقَهم

لَمّا ذكرَ اللهُ ﷻ الجنَّةَ التي تضمَّنَ ذِكرُها البعث؛ استدلَّ على القدرةِ عليه بابْتداءِ الخلق، وكذلك لَمّا ذَكَرَ العباداتِ السَّبعةَ الَّتي هي سببُ دخولِ الجنَّةِ ووراثةِ الفِردَوْس؛ أتْبعَها بذِكْرِ أطوارِ سبعةٍ يتقلَّبُ فيها الإنسانُ قبلَ خروجِه إلى الدُّنيا فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، وكأنّه قد قيل له: إنَّما كَمُلَ خلقُكَ وخُروجُكَ على الدُّنيا بعد هذه التَّقلُّباتِ السَّبعة، وإنَّما تتخلّصُ من دُنياك بالتزامِ هذه العباداتِ السَّبع[1]، ويمكنُ أن تكونَ المناسبةُ أنَّه لَمّا ذَكَرَ سبحانه أحوالَ السُّعداء، عقَّبه بذِكْرِ مبدئهم ومآلِ أمرِهم في ضمنِ ما يعمُّهم وغيرَهم، وفي ذلك إعظامٌ للمِنَّة عليهم، وحثٌّ على الاتّصافِ بالصِّفاتِ الحميدة، وتحمُّلِ مُؤَنِ التَّكليفاتِ الشَّديدة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلَٰلَةٖ﴾: (سلّ) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ مَدُّ الشَّيْءِ في رِفْقٍ وخَفاءٍ، وسلُّ الشَّيءِ من الشَّيءِ: نَزْعُه، والسُّلالةُ: فُعالةٌ من السَّل؛ وهو اسْتخراجُ الشَّيءِ من الشَّيء، يُقال: سَلَلْتُ الشَّعرَ من العجينِ فانْسلّ،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 111 - 112.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.

وسَلَلْتُ السَّيفَ من غِمْدِه فانسلّ، ومن هذا يُقالُ للنّطفة: سُلالَة، وللولَد: سَليلٌ وسُلالة؛ أيْ: سَلُّ الولَدِ من الأب[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾؛ أيْ: جَوْهرُ الإنسانِ وأصلُه الَّذي يُسَلُّ من كلِّ تربةٍ[2].

2) ﴿طِينٍ﴾: طِنْتُ كذا، وطيَّنْتُه، والطّينُ: التُّرابُ والماءُ المختلط، وقد يُسمَّى بذلك وإن زالَ عنه قوّةُ الماء، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصّافّات: 11]، والطّينُ: الوَحْلُ، والطّينةُ أخصُّ منه، ويُقال: طيَّنَ السَّطحَ تَطْييناً، وبعضُهم يُنكرُه ويقول: طانَه من باب باعَ؛ أيْ: طانَه يَطينُ، فهو مَطين، والطّينة: الخِلقةُ والجِبلَّةُ[3]، وقولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ هي خِلْقةُ آدمَ عليه السلام؛ أيْ: من طينةٍ اسْتُلَّت من الأرضِ طيبِها وسَبخِها وجميعِ أنواعها[4].

3) ﴿نُطْفَةً﴾: بضمِّ الطّاء وكسرها، ونَطَفانُ الماء: سَيَلانُه، والنُّطفةُ: الماءُ الصّافي، وأصلُها من النَّطْف، وهو القَطْر، ويُعبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: 37]؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾[5].

4) ﴿قَرَارٍ﴾: قرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبتَ ثبوتًا جامدًا، وأصلُه من القَرِّ وهو البَرْد، وهو يقتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: 64]؛ أيْ: مُستقرًّا.

5) ﴿مَّكِينٍ﴾: يُقال: أمكَنْتُ فلانًا من فلان، ويُقال: مكانٌ ومكانة، والمكانُ عند أهل اللُّغة: الموضعُ الحاوي للشَّيء، وقوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التّكوير: 20]؛ أي: مُتمكِّنٍ ذي قَدْرٍ ومَنزلة[6]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ أيْ: مُستقرٍّ وموضعِ قرارٍ - فسمّاه بالمصدر - مُطمئنٍّ غيرِ مضطَّرِب، يُقال: مَكين: بَيِّن المكانة؛ والمُرادُ هنا: الرَّحِمُ، مُكِّنَ فيه بأن هُيِّئَ لاستقرارِه فيه إلى بلوغِ أمَدِه الَّذي جُعِلَ له[7].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/ 8، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (سلل).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 231.
(3) الرّاغب، المُفردات، ومختار الصّحاح: (طين).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 649، والسَّبخة المكان يسبخ، فينبت الملح، والسَّبخةُ - محرّكة ومسكّنة -: أرضٌ ذات نزٍّ وملح، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (سبخ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والرازي، مختار الصّحاح: (نطف).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قر) (مكن).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 9، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 649.

6) ﴿عَلَقَةَ﴾: (علق) أصْلٌ كَبيرٌ صَحيحٌ يرْجِعُ إلَى معنًى واحدٍ[1]، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، يُقالُ: عَلِقَ الصَّيدُ في الحِبالة، وأعْلَقَ الصّائد؛ إذا عَلِقَ الصَّيدُ في حِبالته، والعَلَقُ: الدَّمُ الجامد، ومنه العَلَقةُ الَّتي يكونُ منها الولد، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 2].

ومعنى قولِه تعالى: ﴿عَلَقَةَ﴾؛ أيْ: قطعة الدَّمِ الجامد[2].

7) ﴿مُضۡغَةَ﴾: (مَضَغَ): أصْلٌ صَحيحٌ، مَضَغَ الطَّعامَ يمضَغُه مَضْغًا، ومَضغَ الطَّعامَ يمضُغُه مَضغًا، والمُضْغَةُ: القطعةُ من اللَّحم، قَدْرَ ما يُمضَغُ ولم ينضُج، قال الشّاعر:

يَلَجْلَجُ مضغة فيها أنيضُ[3]

أي: غيرُ مُنضَج، وجُعِلَ اسْمًا للحالةِ الَّتي ينتهي إليها الجنينُ بعد العَلَقة، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً﴾[4].

8) ﴿فَكَسَوۡنَا﴾: (كسا): كَسَوْتُه كِسْوةً؛ فاكْتَسَى، قال تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النّساء: 5]، والكِساءُ والكِسْوةُ والكُسْوة: اللِّباس، قال تعالى: ﴿أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ﴾ [المائدة: 89][5].

ومنه قولُه تعالى: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾؛ أيْ: أنبتَ اللّهُ ﷻ على كلِّ عظمٍ لحمًا على مقدارِ الَّذي يليقُ به ويناسبُه[6].

9) ﴿أَنشَأۡنَٰهُ﴾: (نَشَأ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ[7]، وأنْشأهُ اللّهُ: خلقَه، والاسْمُ: النَّشْأةُ والنَّشاءة، وأنْشَأ يفعلُ كذا؛ أي: ابْتدأ، والنَّشْء والنَّشأةُ والإنْشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62]، والإنشاءُ: هو الابتداء[8]، قال تعالى: ﴿إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّجم: 32]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علق).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (علق).
(3) الشَّطرُ لزهير بن أبي سلمى في ديوانه، ص: 14، وعجزه: أصلّت فهي تحت الكشح داءُ.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (مضغ).
(5) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (كسا).
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 649.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشأ).
(8) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نشأ).

أيْ: بنفخِ الرّوحِ فيه[1]، أو اسْتوائه شبابًا[2]، أو أن جُعلَ ذكَرًا وأُنثَى[3]، والأوْلى دخولُ هذه المعاني كلِّها، فلا وجهَ للتَّخصيص، وإنَّما هو عامٌّ في هذا وغيرِه من وجودِ النُّطقِ والإدراك وحُسْنِ المحاولة، وأوَّلُ رُتبةٍ من كونِه آخَر، هو نَفْخُ الرّوحِ فيه، ثمَّ تحصيلُه المعقولاتِ إلى أن يموت[4].

10) ﴿فَتَبَارَكَ﴾: (برك) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ثَباتُ الشَّيْءِ، تَبارَكَ؛ أيْ: بارِكَ؛ مثل: قاتلَ وتَقاتلَ إلّا أنَّ فاعَلَ يتعدَّى، وتفاعَلَ لا يتعدَّى، وتبرَّك به؛ أيْ: تيمَّنَ به، والبَرَكةُ: النَّماءُ والزّيادة، ويُقال: هو مُبارَكٌ؛ أيْ: فيه بَرَكة، وتَبارَكَ؛ أيْ: تَنبيهٌ على اخْتصاصِه تعالى بالخَيْراتِ المذكورة، كما في قولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: 1]، وقولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وهذا شأنُ لفظِ (تبارَكَ) في كلِّ موضعٍ وردَ فيه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تباركَ اللهُ الّذي قدَّرَ مراحلَ خَلْقِ الإنسانِ فجعلَه معتدلًا سَويًّا

يقولُ تعالى مُخبِرًا عنِ ابْتداءِ خلقِ الإنسانِ من سُلالةٍ من طينٍ؛ وهو آدمُ عليه السلام: خلقَه اللّهُ من طينٍ مأخوذ من جميع الأرض، ثمَّ جعله نُطفةً في الرَّحِمِ المُعدِّ لذلك المُهيَّأ له، ثمَّ صيَّر اللّهُ النُّطفةَ الَّتي تخرجُ من صُلْبِ الرَّجُلِ وترائبِ المرأة - وهي عظامُ صَدْرِها ما بين التَّرقوةِ إلى السُّرَّة - فصارتْ عَلَقةً حمراء، ثمَّ صيَّرها قطعةً كالبَضْعةِ من اللَّحم، ثمَّ خلقَها اللّهُ تعالى ذاتَ رأسٍ ويدَيْن ورِجْلَيْن بعظامِها وعَصَبِها وعُروقِها، ثمَّ نفخ اللّهُ في هذا المخلوق الرّوحَ فتحرَّكَ وصارَ خلْقًا آخرَ ذا سمعٍ وبَصَرٍ وإدراكٍ وحَركةٍ واضْطراب؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 9، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والسّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 91.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 10 - 11، عن مجاهد.
(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 4/ 9، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 449.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 10/ 336، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 110.
(5) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برك).

فتبارَكَ اللّهُ وكَثُرَ خيرُه في قدرتِه ولُطفِه في خلقِ هذه النُّطفةِ من حالٍ إلى حالٍ، وشَكْلٍ إلى شَكْلٍ، حتَّى تصوَّرتْ إلى ما صارتْ إليه من الإنسانِ السَّويِّ الكامل الخَلْق[1].

وتُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى بيان مظاهر قدرة اللّه وعلمه وحكمته، وبيان خلق الإنسان والأطوار التي يمرُّ بها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾:

الواوُ اسْتئنافيّةٌ أو عاطفةٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ للاسْتئناف، فبعد أن ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ أوصافَ المؤمنين وإرثَهمُ الفِردَوسَ وخلودَهم فيها؛ اسْتأنفَ حديثَه بذِكْرِ مبدئهم ومآلِ أمرِهم في ضمنِ ما يعمُّهم وغيرَهم[3]، والاستئناف ابتدائيٌّ.

ويمكنُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً جملةَ كلامٍ على جملةٍ، وإن تباينت في المعاني[4]، والعطفُ بالواو هنا يُسمَّى عطفَ غرَضٍ على غَرَض، ويُسمَّى كذلك عطفَ القصَّة على القصّة، فللجملةِ حُكمُ الاسْتئناف؛ لأنَّها عطفٌ على جملةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التي هي ابْتدائية[5]، وما جاء بعدها من جمل إلى آخر جملة من قبل هذا الكلام المعطوف.

معنَى اللّام و(قد) وغَرَضُ تتابعِ المؤكِّدات:

القَسَمُ والتَّحقيقُ تعريضٌ بالمشركينَ المُنكرينَ للألوهيَّةِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَم؛ أيْ: باللّهِ لقد خلقنا جِنْسَ الإنسان من طين[6]، و(قد) حرفُ تحقيق، وتأكيدُ الخَبرِ بلامِ القَسَم وحرفِ التَّحقيقِ مُراعًى فيه التَّعريضُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 227 - 228.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 508.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 21.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 51.

بالمشركينَ المُنزَّلينَ منزلةَ مَنْ يُنكرُ هذا الخبرَ لعدَمِ جَرْيِهم على موجِبِ العلم[1].

نكتةُ إسنادِ الخَلْقِ في الآيةِ إلى ضميرِ العَظَمة:

عُلوُّ وعظمةُ اللهِ في خلقِه وقدرتِه

قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ بإسنادِ الخلقِ إلى ضميرِ العَظَمة (نا) دلالةٌ على عُلوٍّ في الرُّتبةِ والعَظمةِ للّه ﷻ؛ أيْ: خَلَقْنا بما لنا من العَظَمةِ والقُدرةِ الفائقةِ والعلمِ الواسعِ، والحكمةِ البالغةِ في كلِّ شيءٍ، ومن ذلك: خَلَقْنا النّطفةَ البيضاءَ جدًّا علقةً حمراءَ دمًا عبيطًا شديدَ الحُمرةِ جامدًا غليظًا، ثمَّ مضغةً، ثمَّ عظامًا، ثمَّ كسَوْناه لحمًا ثمَّ أنشأْناه خلْقًا آخَر[2].

معنَى (أل) في الإنسان:

(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجِنْس؛ أي: المُرادُ بالإنسانِ جِنسُه بدءًا بآدمَ عليه السلام، ثمَّ ما نَسلَ منه من سُلالةٍ بشريَّة[3].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾:

خلقُ الإنسانِ من خُلاصةِ الطّين

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ ابْتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بالخَلْق؛ أي: ابْتدأ خَلْقُ الإنسانِ من خلاصةِ الطِّين؛ لأنَّها تُسَلُّ من بين الكَدَر؛ أيْ: خلَقْناه مُنفصلًا آتيًا من سُلالة[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿سُلَٰلَةٍ﴾:

صيغةُ سُلالةٍ تدلُّ على القِلَّة

قولُه تعالى: ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ نكرة؛ أيْ: هي شيءٌ قليلٌ، بما تدلُّ عليه صيغةُ فُعالة؛ فهي بناءٌ للقلَّة، كالقُلامةِ والقُمامة؛ فتكون السُّلالةُ على هذا مجموعَ ماءِ الذَّكَرِ والأُنثَى المسلولِ من دمِهما[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 115 - 116.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.

معنَى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾:

الإنسانُ مخلوقٌ من سلالةٍ كائنةٍ من طينٍ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ﴾ يحتملُ أن تكون ابتدائيَّةً كالأولى إلّا أنَّها مُتعلِّقةٌ بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ على أنَّها بمعنَى مَسلولة، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾؛ أيْ: سلالةٍ كائنةٍ من طينٍ[1]، ويحتملُ أن تكون على هذا تبعيضيَّة[2]، وأن تكون بيانيَّة[3].

نكتةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

جاءت كلمةُ ﴿طِينٍ﴾ نكرةً؛ أيْ: من جِنْسِ طينِ الأرضِ لا على التَّعيين؛ أيْ: كائنة من طينٍ[4] أيًّا كان نوعه ولونه وصفته.

معنَى ﴿ثُمَّ﴾:

ترتيبُ ما بعدَ (ثمَّ) عمّا قبلها

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتَبيّ والتَّراخي؛ أيْ: ترتيبُ ما جاءَ بعد ﴿ثُمَّ﴾ عمّا تقدَّمها، إذْ كان خلقُ النُّطفة عَلَقَةً أعْجبَ من خلق النُّطفة، إذ قد صيَّر الماءَ السّائلَ دَمًا جامدًا فتغيَّرَ بالكثافة، وتبدَّل اللَّونُ من عواملَ أودعَها اللّهُ في الرَّحِم[5]، وبعد تراخٍ في الزَّمان[6].

دلالةُ التَّرتيبِ بالجَعْل في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾:

جعلَ السُّلالةَ في موضعٍ أمينٍ حفاظًا عليها

الجَعْلُ في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أعظمُ من خَلْقِ السُّلالة، فضميرُ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الإنسانِ باعْتبارِ أنَّه من السُّلالة؛ فالمعنَى: جعلْنا السُّلالةَ في قرارٍ مكين؛ أيْ: وضعناها فيه حفظًا لها، ولذلك غيَّرَ في الآيةِ التَّعبيرَ عن فعلِ الخَلْقِ إلى فعلِ الجَعْلِ المُتعدّي بـ﴿فِى﴾ بمعنَى الوضع[7].

(1) العُكبريّ، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 147، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27، وروح المعاني: 9/ 216.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 114.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 115.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.

بيانُ مفعولي الجَعْل:

الأوَّلُ: هـــاءُ الضَّمير (الإنسان) والثّاني: نُطفة

قولُه تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ له مفعولان، الأوَّلُ: هاءُ الضَّميرِ في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ وهو عائدٌ إلى الإنسان في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أو عائدٌ إلى (الخَلق)؛ أيْ: جنس الخلق؛ لأنَّه طَوْرٌ آخَرُ للخَلْقِ ومادَّته، والثّاني: قولُه: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[1]، ويمكن أن تكون ﴿نُطْفَةً﴾ في سائر الوجوهِ مفعولًا ثانيًا للجَعْل على أنَّه بمعنى التَّصيير[2]، ويجوز أن يكون الجَعْلُ بمعنَى الخلْقِ المتعدّي إلى مفعولٍ واحد، ويكون ﴿نُطْفَةً﴾ منصوبًا بنزعِ الخافض؛ أي: ثمَّ خَلقْنا الإنسانَ من نطفةٍ كائنةٍ في قرارٍ مكينٍ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿نُطْفَةً﴾ مادَّةً وصيغةً:

خلقُ الإنسانِ من الماءِ الصّافي حالَ كونه يقطُر في الرَّحِم

سُمِّيَت سُلالةُ الذَّكَرِ نُطفة؛ لأنَّها تُنْطَفُ؛ أيْ: تُقطَرُ في الرَّحِم في قناةٍ معروفةٍ وهو القرارُ المَكين، ويُعبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُل، وهو الماءُ الصّافي، وأصْلُهُ من النَّطْف، وهو القَطْر[4]، و﴿نُطْفَةً﴾ هنا جاءت منصوبةً على الحال؛ أيْ: ثمَّ جعلناه حالَ كونه نطفةً في قرارٍ مكين[5]، ونظمُها حالًا فيه لفتٌ للإنسان إلى مقارنة حاله؛ - وهو يتلقَّى هذا الخطابَ القرآنيّ - بحاله؛ وهو نطفة؛ ليرى عجيب صنع اللّه فيه؛ فينقاد له؛ أمرًا ونهيًا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نُطْفَةً﴾:

من نطفةٍ ما يكونُ خَلْقُ الإنسان

جاء تنكيرُ ﴿نُطْفَةً﴾ للدَّلالةِ على أنَّه الماءُ الدّافقُ الَّذي أُلقيَ في أرحامِ الأمَّهات، وهذا الماءُ الدّافقُ الَّذي هو ماءُ الرَّجُل، نُطفةٌ واحدةٌ منه - لا على التَّعيين - هي الَّتي يقدِّرُ اللّهُ أن تجتمعَ مع نطفةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (نطف).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.

المرأةِ في الرَّحِمِ فتلقِّحُها، فتكون مادَّةُ خلقِ الإنسان منها في هذا القرارِ المَكين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّة ﴿فِي﴾:

ثبوتُ النُّطفةِ في الرَّحِم

عبر السّياق الكريم في الآية في قوله تعالى: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ إذ القرارُ في الأصل: مصدرُ قرَّ إذا ثبتَ في مكانه، وقد سُمّيَ به هنا المكانُ نفسُه، والمَكينُ: الثّابتُ في المكانِ بحيث لا يُقلَعُ من مكانِه، فمُقتضَى الظّاهرِ أن يوصفَ بالمَكينِ الشَّيءُ الحالُّ في المكانِ الثّابتِ فيه؛ أي: البيان الوافي لثبوتِ النّطفةِ في هذا القرارِ المكين[2].

بلاغةُ المَجازِ في قوله: ﴿قَرَارٍ﴾:

الـرَّحِـمُ مَكينٌ للنُّطفةِ حافظٌ لها

لَمّا قال تعالى: ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ بيانًا لثبوتِ النُّطفةِ في المكان، سمَّى به هنا القرارَ المكانَ نفسَه، وزاد هذا الوصفَ قوَّةً أن جعل وصفَ القرارِ الَّذي هو ﴿مَّكِينٍ﴾ وصفًا لنفسِ المكانِ الَّذي استقرَّت فيه النُّطفة على طريقةِ المجازِ العقليِّ للمبالغة؛ وحقيقتُه: مكينٌ حالُّه[3]، وهذا المجازُ على قول القائل: طريقٌ سائرٌ، وإنَّما السّائرُ مَنْ فيه[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿قَرَارٍ﴾:

اسْتقرارُ النُّطفةِ في الرَّحِمِ الَّذي تدخلُ فيه

جاء قولُه تعالى: ﴿قَرَارٍ﴾ نكرة؛ للمبالغةِ في دخول النُّطفةِ في هذا القرار؛ أي: الرَّحِم، وهو أيُّ رَحِمٍ تتوجَّه إليه النُّطفةُ لتدخلَ فيه ثمَّ تستقرُّ فيه، والقرارُ: المستقرّ؛ فهو موضعُ الاسْتقرار[5].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَّكِينٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

النُّطفةُ تستقرُّ في مكانِ الرَّحِمِ وتتمكَّنُ فيه

المَكينُ: الثّابتُ في المكانِ بحيث لا يُقلَعُ من مكانه؛ فمُقتضَى

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5052.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(5) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 8/ 322.

الظّاهرِ أنْ يوصَفَ بالمَكينِ الشَّيءُ الحالُّ في المكانِ الثّابتُ فيه، وقد وقع هنا وصفًا لنَفْسِ المكان الَّذي استقرَّت فيه النُّطفة[1]، فهو تعبيرٌ عن تمكُّنِها بحيث هي وأُحرزت[2]، وهو هنا ذو وصْفيْن؛ الأوَّلُ: تمكُّنه في نَفْسِه بحيث لا يَعْرِضُ له اخْتلال، والثّاني: تمكُّن مَنْ يَحِلُّ فيه، فوُصفَ بذلك على سبيلِ المجاز كما تقدَّم[3].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا﴾:

العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ معناه التَّراخي في خلقِ العَلَقةِ من الماء السّائلِ في موضعِه؛ لأنَّه يكون في وقتٍ أطول، إذْ إنَّه يتحوَّلُ إلى لحمةٍ حمراء، ويتحيَّزُ في مكانٍ بعد أنْ كان سائلًا ليس له مكانٌ مُتحيِّزٌ فيه يملأ فراغًا[4].

تـراخـي خـلـقِ الـعَـلَـقـةِ من النُّطفةِ

معنَى الخلْق هنا:

الخَلْقُ: الإنشاءُ والصُّنع - بأمرِ اللّه -؛ أيْ: إنشاءُ شيءٍ من لا شيءٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82]، وعبَّر هنا بالخَلْق، ولم يُعبِّر بالجَعْل؛ لأنَّه أنْشأه إنشاءً، إذْ تحوَّلَ ما يَنسِلُ من الطّين إلى ماءٍ هو النُّطفة، تحويلٌ بخلق الخالق[5]، فكان خلقُ النُّطفةِ علقةً أعْجبَ من خَلْقِ النُّطفة، إذ صيَّر الماءَ السّائلَ دمًا جامدًا، فتغيَّرَ بالكثافة، وتبدَّلُ اللَّونُ من عواملَ أودَعَها اللّهُ في الرَّحِم[6].

أنشأ اللهُ النُّطفة وحوَّلها أطـوارًا بخلقه وقدرته

معنَى (أل) في قوله: ﴿ٱلنُّطْفَةَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنُّطْفَةَ﴾ للعَهْد الذِّكريِّ؛ أي: النُّطفةُ المعهودةُ وهي السّائلُ الرَّقيقُ الأبيضُ الدّافقُ الَّذي يخرج من صُلْبِ الرَّجلِ وترائبِ المرأةِ، ثمَّ إلى الرَّحِم[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 551.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5052.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5052.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(7) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 115.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَلَقَةً﴾:

العلقةُ قطعةُ دمٍ حمراءَ لا استبانةَ فيها

جاءت ﴿عَلَقَةً﴾ نكرةً؛ لأنَّه لا استبانةَ ولا تمايزَ فيها؛ فهي قطعةُ دم جامدٍ غيرُ واضحةِ المعالم، شأنها - ظاهرًا - كشأنِ أيِّ دمٍ أحمرَ جامدٍ[1]، ولكنَّها مرحلةٌ من مراحلِ خلقِ الجنينِ قبلَ أن يخرجَ من رَحمِ أُمِّه، و﴿عَلَقَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ مفعولٌ به ثانٍ لقوله: ﴿فَخَلَقْنَا﴾ ذلك أنَّ خَلَقْنا بمعنَى: صيَّرنا أو جعلْنا؛ وهي تأخذُ مفعولَيْن[2].

معنَى الفاء في ﴿فَخَلَقْنَا﴾:

تعقيبُ خَلْقِ المُضغةِ عن العَلَقة

عطفَ النَّظْمُ الكريمُ جَعْلَ العَلَقةِ مُضغةً بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا﴾؛ لأنَّ الانتقالَ من العَلَقةِ إلى المُضغةِ يُشبهُ تعقيبَ شيءٍ عن شيءٍ، إذِ اللَّحمُ والدَّمُ الجامدُ متقاربان فتطوّرُهما قريبٌ وإن كان مُكْثُ كلِّ طَوْرٍ مدَّةً طويلة[3].

نكتةُ العدولِ عن العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ إلى الفاءِ في المراحلِ الباقية:

تفريغُ مراحلِ الخلق، وتعقيبُ كلِّ طورٍ عن أخيه

عدلَ النَّظْمُ الكريمُ عن العطفِ بـ (ثمَّ) إلى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا﴾ و﴿فَكَسَوْنَا﴾؛ لتفريغِ اللّاحقِ عن السّابقِ وتعقيبِه عنه؛ فهما متقاربان وطَوْرُ كلِّ واحدٍ منهما قريبٌ من الآخر وإن أخذ مدَّةً طويلةً[4]؛ ففي الفاء و﴿ثُمَّ﴾ تظهر دقة البيان القرآنيّ المتناهية في التَّعبير عن حاقِّ المعنى.

معنَى (أل) في ﴿ٱلْعَلَقَةَ﴾:

قطعةُ دمٍ تسكنُ الرَّحمَ تصيرُ جنينًا

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَلَقَةَ﴾ للعهد الذِّكْريّ؛ أي: العَلقةُ المعروفةُ المعهودةُ الَّتي سبق ذِكْرُها، والتي تكون بعد تحوُّلِ النُّطفةِ لها، وهي قطعةٌ من دمٍ عاقدٍ، تتحيَّز في مكانٍ في رحمِ المرأةِ بعد أن كانت سائلًا ليس له مكانٌ مُتحيِّزٌ فيه يملأ فراغًا[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52.
(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 148.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.

معنى الخَلْقِ هنا:

تـصـيرُ مـراحـلِ الـخَـلْـق بخلقِ اللهِ وقدرته

الخَلْقُ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ بمعنَى الإنشاء؛ أيْ: أنشأناه إنشاءً، إذْ إنَّ تحوُّلَ العَلَقَةِ إلى مُضغة، هو تصييرٌ وتحويلٌ بقدرةِ اللهِ وأمره، فالتَّعبيرُ بـ (الخَلْق) هنا للإشارةِ إلى أنَّ ذلك التَّصييرَ أو التَّحويلَ إنَّما هو بخلق الله تعالى لا بالسَّببيَّة الَّتي تحوِّلُ الجنينَ من نطفةٍ إلى علَقةٍ ثمَّ إلى مضغة، فإنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يُنشئُ الشَّيء، لا ينشأُ شيءٌ بغيرِ إرادته، إنَّما إرادةُ الله تعالى وقدرتُه هي الفاعلة[1]، وإيثارُ التّعبير بالخَلْقِ على التّعبير بالنّشأةِ في هذه الآيات؛ لتعظيم خلْق الإنسان؛ رجوعًا إلى صيغة العظمة التي أُسنِد إليه الخلق في قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ بإفهام أنَّ كلَّ مرحلة من مراحل خلْق الإنسان كأنَّه خلْقٌ مُستقلٌ عظيمٌ في نفسه وفي بابه؛ فهو جديرٌ بالتَّأمُّل، وهو حقيقٌ بالاستدلال به على المقصود من البعث وغيره جل الله تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُضْغَةً﴾:

مقدارُ ما يُمضَغُ يتصلَّبُ ليكونَ جنينًا

المُضغةُ: القطعةُ الصَّغيرةُ من اللَّحم مقدارُ اللُّقمة الَّتي تُمضغ[2]، وجُعلَ اسْمًا للحالةِ الَّتي ينتهي إليها الجنينُ بعد العلَقة[3]، والتَّعبيرُ بالمُضغةِ يُشيرُ إلى تصفيتِها وتصليبِها بما سبَّبها اللهُ لها بخلقِه من الحرارةِ والأمورِ اللَّطيفةِ الغامضة[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مُضْغَةً﴾:

قطعةُ اللَّحمِ الَّتي تُمضَغُ ستكونُ ذاتَ شأنٍ عندما تصيرُ إنسانًا

ورد قولُه تعالى: ﴿مُضْغَةً﴾ بصيغةِ التَّنكير؛ لأنَّ هذه القطعةَ الصَّغيرةَ من اللَّحم، وهي بمقدارِ اللُّقمةِ الَّتي تُمضَغُ لا اسْتبانةَ ولا تمايُزَ فيها، وهي ظاهرًا مُجرَّدةٌ عن أيّ حياة، شأنُها كشأنِ أيِّ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (مَضغ).
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 116.

قطعةِ لحمٍ، ولكنَّها ستكونُ مودعةً لسِرٍّ من أسرارِ الخَلْق، ومحلًّا لحياةٍ مخلوقٍ بشريٍّ اسْمُه الإنسان[1].

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَخَلَقْنَا﴾:

تفريعُ وتعقيبُ خَـلْـقِ العـظـامِ عن المُضغةِ

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا﴾ عطفًا على جَعْلِ المُضغةِ عظامًا تفريعًا وتعقيبًا؛ لأنَّ الانْتقالَ من المضغةِ إلى العِظامِ يُشبه تعقيبَ شيءٍ عن شيءٍ، لكنَّه هنا تكوينُ العظامِ في داخلِ تلك المُضغة، وذلك ابتداءُ تكوينِ الهيكلِ الإنسانيِّ من عَظْمٍ ولحمٍ[2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْمُضْغَةَ﴾:

المُضْغةُ تكوَّن في الـرَّحـمِ لتصيرَ خَلقًا آخر

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُضْغَةَ﴾ للعَهْد الذِّكْري؛ أي: المضغة الَّتي سبق ذِكْرها، والتي جعلَها اللهُ طَوْرًا من أطوارِ خَلْقِ الإنسان الَّتي تكونُ بعد تحوُّل العَلَقة، وهي قطعةُ لحمٍ بمقدارِ اللُّقمةِ الَّتي تُمضَغ، تسكنُ بقدرةِ اللهِ في رحمِ الأمّ؛ لتصيرَ بعد ذلك مع مراحلَ بعدها جنينًا تامًّا وخَلْقًا سويًّا[3].

معنَى الخلق في: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾:

تكوينُ العظامِ داخـلَ المضغةِ بـدايـةُ الهيكلِ الإنسانيّ

قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ فيه بيانُ خَلْقِ المُضغةِ عظامًا، والمُرادُ بالخَلْق هنا: تكوينُ العظامِ في داخلِ تلك المضغة، وذلك ابْتداءُ تكوينِ الهيكلِ الإنسانيِّ من عَظْمٍ ولَحْم دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ بفاء التَّفريع[4].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عِظَٰمًا﴾:

الصَّلابةُ والقوَّةُ في العِظام

العَظْمُ: جمعُه عِظام، ويُقال: عَظْمةُ الذِّراعِ لِمُستَغلِظها، ويُستعارُ العَظْمُ لكلِّ كبيرٍ وغليظ كنايةً عن الصَّلابةِ والقوَّة، ويُقال عنِ الشَّيء: عَظُمَ؛ أيْ: كَبُرَ عَظْمُه، فأُجْرِيَ مَجْراهُ سواء أكان محسوسًا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.

أم معقولًا[1]؛ فجاء التَّعبيرُ بهذه المادّة؛ لأنَّ التَّصييرَ بالتَّصليبِ هو المناسبُ لتحويلِ المضغةِ إلى عظامٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ حَسَب ما تقتضيه الحِكْمة[2].

نكتةُ تنكير ﴿عِظَٰمًا﴾:

العظامُ متفاوتةٌ في مقاييسها ومحالِّها

قولُه تعالى: ﴿عِظَٰمًا﴾ نكرة؛ لأنَّ العظامَ متفاوتةٌ في حَجْمها وطولِها وصلابتِها، وخلقُ المُضغةِ عظامًا قد يكون بغالبِها ومُعظمِها أو كلِّها، وقد تكون العظامُ صغارًا أو كبارًا، وهي غيرُ مُستبينةٍ أو مُتمايزةٍ حتَّى تأخذَ صورتَها وصلابتَها مع أطوارِ خلقِ الإنسانِ من صغيرِه حتَّى يقوى عودُه ويشتدَّ صُلبُه[3].

الموقعُ النَّحْويّ لقوله: ﴿عِظَٰمًا﴾:

جعلَ اللهُ تعالى المُضغةَ عظامًا

﴿عِظَٰمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ مفعولٌ ثانٍ للفعل ﴿فَخَلَقْنَا﴾؛ أيْ: بعد أن تخلَّقتِ المضغةُ وتميَّزتْ أجزاؤها، جعلَها اللهُ تعالى عظامًا؛ أيْ: جعلَ من هذه المضغةِ عظامًا صلبةً تتحمَّل[4]، فقوله: ﴿فَخَلَقْنَا﴾؛ أيْ: صيَّرنا بحسبِ الوصف، فيحتاج بهذا إلى مفعولَيْن[5].

توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّةِ في: ﴿عِظَٰمًا﴾ وبلاغتها:

الإفرادُ والجمع، والأوَّل يُـرادُ به الثّاني

في قوله تعالى: ﴿عِظَٰمًا﴾ قراءتانِ متواترتان[6]؛ الأولى: ﴿عَظْمًا﴾ بالإفراد، وهي قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم؛ على أنَّه اسم جِنْس، فأُفرِدَ كما أُفرِدَتِ المصادرُ وغيرُها من الأجناس نحو: الإنسان، والدِّرهم، والشّاء، والبعير، وقد يجوز من التَّوحيد إذا

(1) الرّاغب، المُفردات: (عظم).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216 - 217.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(6) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 444، والداني، التّيسير، ص: 158، وابن الجرزي، النَّشر: 2/ 328.

كان في الكلام دليلٌ على الجمع[1]، والثّانية: ﴿عِظَٰمًا﴾ بالجمع، وهي قراءة الباقين؛ لأنَّه يُعلمُ أنَّ الإنسانَ ذو عظامٍ، والجمعُ أشبهُ بما جاء في التَّنزيلِ في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: 49]، وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ [النّازعات: 11]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ [يس: 78][2]، وكذلك جاء جمعُ العظام؛ لأنَّها متغايرةٌ هيئةً وصلابة، بخلاف غيرِها، ألا ترى عظمَ السّاقِ وعظمَ الأصابعِ وأطرافِ الأضلاعِ وغيرِها كثير[3].

والتَّوحيدُ والجمعُ ههنا جائزان؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ على التَّوحيد؛ فلأنَّه يدلُّ على الجمع، ولأنَّ معه اللَّحم، ولفظُه لفظُ الواحد، فقد عُلِمَ أنَّ العَظْمَ يُرادُ به العظام[4].

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَكَسَوۡنَا﴾:

ترتيبُ كِسوةِ العظامِ لحمًا على جعلِ المضغةِ عظامًا

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَكَسَوۡنَا﴾ للتَّفريعِ والتَّرتيبِ والتَّعقيب؛ لأنَّ الانتقالَ من العظامِ إلى كسائها لحمًا يُشبهُ تعقيبَ شيءٍ عن شيء، لكنَّه هنا جعلَ من هذه المضغةِ عظامًا صُلبةً تتحمَّل، وبعد أن خَلق فيها صفةَ الصَّلابةِ والتَّحمّلِ جعلها مكسوَّةً باللَّحم المُغلَّف لما هو قويٌّ صُلبٌ لا يتفتَّت ولا يتهاوى أو يسقط، وهذه حكمة ربّانيَّةٌ جليلةٌ مع قدرةٍ فائقةٍ عظيمة[5].

نكتةُ العطفِ بالفاءِ دون غيرِها من حروف العطف:

سُرعةُ التَّكوينِ الإلهيِّ لمراحلِ خلقِ الإنسانِ مع القدرةِ والحكمةِ الجليلتَيْن

يُلاحظُ أنَّ العطفَ في مقام خلق المضغة عظامًا، وكسو العظام لحمًا كان بالفاء الدّالَّةِ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا﴾؛ وذلك للدَّلالةِ على

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 8 - 9، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 288 - 289.
(2) ابن خالوَيْه، إعراب القراءات السَّبع: 2/ 85 - 86، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 288 - 289، وابن زَنْجَلَة، حُجَّة القراءات، ص: 484، ومكّي، الكشف: 2/ 126.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 8 - 9.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.

سرعةِ التَّكوينِ مع تفاوتِ هذا التَّكوين، أو التَّحوّلِ بإرادةِ اللّهِ وحده، وبذلك تكونُ أيسر، وما خَلْقُ الإنسانِ بأكْبرَ من خلقِ السّماوات والأرض، قال ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: 57][1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالكَسْو في العظام:

الكِساءُ: اللِّباس، وكَسَوْنا؛ أيْ: ألْبَسْنا، وكما أنَّ اللِّباسَ ساترٌ للبَدَن، فكذلك - هنا - في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ جعلَ اللّهُ اللَّحْمَ ساترًا للعظام حمايةً لها، ولإسباغِ التَّسويةِ والجمالِ على ظاهرِ الجسد، وهذا الكساءُ للعظام متحقِّقٌ ظاهرٌ معلومٌ لكلِّ إنسان[2]، فالتعبيرُ بالكَسْوِ أبلغ في إبراز نعمة اللّه في هذه المرحلة من خلق الإنسان؛ دمجًا للامتنان في سياق الاستدلال.

اللَّحمُ ساترٌ للعظامِ كما اللِّباسُ ساترٌ للجَسد

نكتةُ إسنادِ الكِسوةِ إلى ضميرِ العَظَمة:

أسندَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا﴾ الكِسوةَ إلى ضميرِ العظَمة (النّون)، والنّون هنا دالَّةٌ على الفاعلين تعظيمًا للفاعل وهو اللّهُ الخالقُ ﷻ؛ أيْ: فكَسَوْنا - بما لنا من قدرةِ الاخْتراعِ وعلمٍ واسعٍ وحكمةٍ فائقةٍ - تلك العظامَ لحمًا، فسترْنا تلكَ العظامَ، وقوَّيناها وشدَدْناها بالرَّوابطِ والأعصاب[3].

اللّهُ تعالى بعظَمتِه وقُدرتِه كسا العظامَ لحمًا

معنَى (أل) في ﴿ٱلْعِظَٰمَ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلْعِظَٰمَ﴾ للعَهْد الذِّكْري؛ أيْ: فكَسَوْنا العظامَ المعهودةَ لحمًا، وهذا أمرٌ بادٍ لكلِّ ذي لُبٍّ[4]، والعهد هنا وفيما سبق من نظائره يكون ذهنيًّا أيضًا؛ لأنَّ المُتلقّين خوطبوا بهذا الكلام بعد تمام خَلقهم وتهيئتهم للخطاب؛ فهو للعهد الذِّكْريّ والعهد الذّهنيّ معًا.

كسا اللّهُ العظامَ المعهودةَ لحمًا

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053 - 5054.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 116.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.

نكتةُ تنكيرِ ﴿لَحْمًا﴾:

لفتُ النَّظر إلى المُضغة قبل كونها عظمًا

جاء تنكيرُ ﴿لَحْمًا﴾ عَوْدًا على ما كانت عليه من قبل؛ وهي مُضغةٌ قَدْر ما يمضغه الإنسان؛ أيْ: كَسَوْنا العظامَ لحمًا بما ولَّدنا منها، ترجيعًا لحالها قبل كونها عظمًا، فستَرْنا تلك العظامَ لحمًا وقوَّيناها به[1].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿لَحْمًا﴾:

صيَّر اللهُ العظامَ لحمًا

قولُه: ﴿لَحْمًا﴾ مفعولٌ ثانٍ للفعل ﴿فَكَسَوْنَا﴾؛ لأنَّ كسَوْنا فيها معنى الجَعلِ والتَّصيير؛ أيْ: صيَّرنا تلك المضغةَ أو جزءًا منها لتكون لحمًا كاسيًا للعظام، أو هيَّأنا العظامَ لتكون صالحةً لكِسوتِها باللَّحم[2].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾:

تراخي أطوارِ الخَلْق

﴿ثُمَّ﴾ تُفيد التَّراخي، وهو هنا كذلك، فالعطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ له موضعُه في هذا السّياق؛ لأنَّ ذلك الخلقَ الآخَرَ أخذَ أطوارًا مختلفةً مُتلاحقةً بمُددٍ زمنيَّةٍ متفاوتةٍ تقصرُ أو تطول، حسب ما تقتضيه الحكمةُ الإلهيَّة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ مادَّةً وصيغة:

نفخُ الرّوحِ تحقيقُ إنشاءِ الجنينِ خَلْقًا آخَر

الإنشاءُ: هو الابْتداء، وإحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه[4]، وأصلُ النّونِ والشّينِ والهمزةِ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ وسُموّ[5]، فدلَّ هذا على أنَّه أرادَ به نَفْخَ الرّوح[6]؛ لأنَّه لا يحتملُ أن يكونَ خلقًا آخرَ إلّا بأن يزولَ عن كيفيَّته الأولى، وهي أنَّه كان لحمًا وعظمًا مواتًا، فلمّا حصلَ فيه الرّوحُ صارَ خلقًا آخَر حيوانًا بعد أن كان مواتًا[7]، فأوَّلُ رُتبةٍ من كونه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 116.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(4) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نشأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشأ).
(6) عن ابن عبّاس ﷺ، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 18/ 9، والسّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 91، وهو اختيار ابن قتيبة في غريب القرآن، ص: 296.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 110، والواحدي، البسيط: 15/ 542.

آخَرَ هو نفخُ الرّوح فيه، ثمَّ تحصيلُه المعقولاتِ إلى أن يموت[1]، فعُبِّر بالإنشاء تفرقةً بين ما سبق من خَلقٍ وهذا الخَلق الآخر، ثم هذا الخَلق الآخرُ مُتطوِّر عن الخلق الأول؛ فخلقُ الإنسان فيه أعلى وأرفع وأتمُّ وأكمل، وهو أمرٌ مُتحقَّقٌ بأمرِ اللّهِ وقَدَره، دلَّ على ذلك صيغةُ الفعل الماضي ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾.

نكتةُ تنكيرِ ﴿خَلْقًا﴾:

أطـوارُ خَـلْـقِ الإنسانِ عديدةٌ مُتباينة

جاء تنكيرُ ﴿خَلْقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ للدَّلالة على أنَّ ﴿خَلْقًا﴾؛ أيْ: هذه الخلقُ أخذَ أدوارًا مختلفةً وأطوارًا مُتباينةً، وهو خلقٌ ناقصٌ في تلك المراحل، لكنَّه خَلْقٌ مُتمِّمٌ لما قبله موطِّئٌ لما بعده حتَّى اسْتوى خَلْقًا كاملًا - في آخرِ رحلاتِه - إنسانًا سويًّا[2].

دلالةُ وصفِ الخَلْقِ بـ ﴿ءَاخَرَ﴾:

مباينةُ خَلْقِ الإنسانِ بعد نفخِ الرّوحِ فيه عمّا كان عليه قبلَها

ورد وصفُ الخَلق بـ ﴿ءَاخَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّه خَلقٌ مُباينٌ للخَلْقِ الأوَّل مباينةً ما أبعدها، وذلك بعد دبِّ الرّوحِ فيه حيث جعلَه حيوانًا وكان جمادًا، وناطقًا وكان أبْكم، وسميعًا وكان أصمّ، وبصيرًا وكان أكْمَه، وأوْدعَ باطنَه وظاهره، وكلَّ عضوٍ من أعضائه، وكلَّ جزءٍ من أجزائه عجائبَ قدرته، وغرائبَ حِكَمِه ممّا لا يُدرَك بوصفِ الواصف، ولا بشرحِ الشّارح[3]، ففي هذا الوصف تمكينٌ للتّعبير بـ ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ دون: (خَلَقْناهُ).

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾:

الجملةُ السّاميةُ (فتباركَ اللهُ) ثمرةٌ طيّبةٌ للخَلقِ السّابق

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ للإفصاح؛ لأنَّها تُفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ معناه: إذا كان اللّهُ هو الَّذي خلقَ ذلك الخَلق؛ فتباركَ اللّهُ أحسنُ الخالقين[4]؛ فالفاءُ هنا أعْربَتْ عن أنَّ إعجازَ هذه الآيةِ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 10/ 336.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 15/ 5054.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 15/ 5054.

الكريمةِ منوطٌ بما قبلَ قولِه: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ فإنَّها اعتراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَه[1].

العَـلاقـةُ بين الجملتيْن لفظيَّة سببيَّة ظاهرة

والفاء تُفْهِمُ أيضًا أنَّ فقه مضمون جملة: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ مُتوقِّفٌ على فقه على ما قبلها من معانٍ من قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ إلى آخره، ولمّا كان السّياقُ للاستدلالِ على الأصالةِ وللامتنانِ على التَّبَعِ آثر القرآنُ ربطَ هذه الجملة بما قبلها ربطًا ظاهرًا؛ فكانت العَلاقةُ بينهما لفظيَّة سببيَّة ظاهرة؛ وهي الفاءُ ﴿فَتَبَارَكَ﴾، ولو قيل: (تبارك اللّه أحسن الخالقين)؛ لكانت قد فُصلت عمّا قبلها؛ لأنَّ ما قبلها يُنتِجُها ويُؤدّي إليها؛ بدليل أنَّ بعض الصَّحابة نطق بها من قبل أن ينطق بها النَّبيُّ ﷺ؛ فهي لازمٌ من لوازمه؛ فبينهما كمال اتّصال مِن نوع التّوكيد المعنويّ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

البركةُ دائمةٌ من اللهِ لا تنقطع

تبارَكَ؛ أيْ: تسامَى في البركةِ وعلا جلَّ شأنُه، حتَّى لا يُناهدَه أحدٌ في خيرِه الدّائم ﷻ[2] وهو من البَركة، والبَرَكةُ من اللّه تعالى: النَّماءُ والزّيادةُ واليُمن، وكلُّ ذلك من اللّهِ وحدَه، فهو تعالى المُختصُّ بالخيراتِ دون سواه[3]، وصيغةُ (تبارَكَ) (تفاعلَ) صيغةُ مُطاوعةٍ في الأصل، وأصْلُ المُطاوعةِ قَبولُ أثَرِ الفعل، وتُستعمَلُ في لازمِ ذلك، وهو التَّلبُّسُ بمعنَى الفعلِ تلبُّسًا مَكينًا؛ لأنَّ شأنَ المطاوعةِ أن تكونَ بعد معالجةِ الفعل، فتقتضي ارْتساخَ معنَى الفعلِ في المفعولِ القابلِ له حتَّى يصيرَ ذلك المفعولُ فاعلًا، فيُقال: كسَّرْتُه فتكَسَّر؛ فلذلك كان (تفاعل) إذا جاء بمعنَى (فَعَلَ) دالًّا على المبالغة[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 53.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5055.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برك).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.

بلاغةُ الالتفاتِ من ضمائرِ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَة:

إجلالُ اللهِ وإعظامُه في بديعِ خَلْقِه وآثارِ قُدرته

جاء النَّظمُ الكريمُ بالالتفاتِ من ضمائرِ التَّكلُّمِ السّابقةِ إلى الغَيْبةِ في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ مع ذِكْرِ الاسْمِ الجليلِ؛ لتربيةِ المَهابةِ وإدخالِ الرَّوعة، والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيل العجيبةِ هو من أحكامِ الأُلوهيَّة، وللإيْذانِ بأنَّ حقَّ كلِّ مَنْ سمعَ ما فُصِّلَ من آثارِ قدرتِه ﷻ، أو لاحظَه أن يُسارِعَ إلى التَّكلُّمِ به إجلالًا وإعظامًا لشؤونِه ﷻ[1].

نكتةُ حذفِ مُتعلَّق ﴿فَتَبَارَكَ﴾:

السّياقُ الجليلُ دليلٌ على شمولِ علمِ اللهِ وعظيمِ قدرته

لم يذكرِ النَّظمُ الجليلُ مُتعلَّقَ قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾؛ لأنَّ السّياقَ في سابقِه دلَّ عليه دلالةً واضحةً في بيانِ شأنه تعالى في علمِه الشّاملِ وقدرتِه الباهرةِ وحكمتِه الفائقةِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و﴿جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، ثمَّ أكَّدَ ذلك وتوَّجَه باللِّحاق، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2]، وكذلك فإنَّه لمّا حُذِفَ متعلَّقُ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ كان قولُه: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ عامًّا، فيشملُ عَظَمةَ الخيرِ في الخلقِ وفي غيرِه[3].

وهذا الحذفُ هو الأنسبُ بسياق الاستدلال على البعث وغيرِه؛ فإنه يفتح بابَ الاستدلال بغير ما ذُكِر من قبل هذه الجملة ممّا يُقال عقِبَ سماعه أو رؤيتِه أو تلقّيه مُطلقَ تلقٍّ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وبهذا الحذف تهيَّأتِ هذه الجملةُ لأن تكون مَثَلًا يُقال في كل شيءٍ عظيمٍ فخمٍ.

علةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾:

عنصر الإبانة: إمّا تأسيسٌ، وإمّا تمكينٌ، أو هما معًا

حذفُ مُتعلَّقِ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52 - 53.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 218.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.

يدلُّ على العموم؛ أيْ: عمومِ خَلقِ الإنسان، وخَلْقِ غيرِه كالسّماوات والأرض والجبال وسائرِ المخلوقات[1]، وهذا الحذف تمكينٌ لحذف متعلّق قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿أَحْسَنُ﴾، وخروجها عنِ الظّاهر:

خَلْقُ اللهِ تعالى في حُسْنِه لا يُناصبُه حُسْن

قولُه تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾؛ أيْ: أحسنُ المُنشئين إنشاءً؛ لأنَّه أنشأ ما لا يستطيعُ غيرُه إنشاؤه[2]، وقولُه: ﴿أَحْسَنُ﴾ أفعل التَّفضيل، وهو ليس على بابه، إنَّما معناه أنَّ خلْقَ اللهِ تعالى وصلَ إلى أعلى درجات الحُسْن، بحيث لا يُناصبُه حُسْنٌ قطّ، وحقًّا لقد خلقَ اللهُ الإنسانَ في أحْسنِ تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التّين: 4][3]، واستعمالُ هذه الكلمة مادةً وصيغةً: أبَرُّ بسياق الاستدلالِ؛ للفت إلى قوّة الدّليل، ومدى عمقه في الاستدلال، وعظمته في الإقناع؛ فيكونُ بينها وبين الفاء في صدر الجملة تناغٍ وتناصرٌ في إبراز هذا المقصودِ السّياقيِّ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾:

المستحقُّ لأعلى مقاماتِ الإجلالِ والتَّعظيم، هو اللهُ الخالقُ الأحد

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ للاستحقاقِ والمبالغة؛ أيْ: مَنْ قدَّر هذا الخلقَ العجيبَ هذا التَّقدير، ثمَّ طوَّره في أطوارِه - ما بين طفلٍ رضيعٍ، ومُحتلِم شَديد، وشابٍّ نشيط، وكَهْلٍ عظيم، وشيخٍ هَرِم - إلى ما بين ذلك من شؤونٍ لا يُحيطُ بها إلّا اللَّطيفُ الخبير، الَّذي هو حقًّا وصدقًا أحْسنُ الخالقين المُستحقُّ لأرفعِ مقاماتِ الإجلال، وأعْلى درجاتِ التَّعظيم[4].

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ مع آيةِ الخلقِ في سورة الحجّ:

الله القادر خلقَ الإنسانَ في أطوارِه المتعاقبة ثمَّ يُميتُه ثمَّ يبعثُه

في سورة (المؤمنون) جاء العطفُ بـ (ثمَّ) في خلقِ العلَقةِ من الماءِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5055.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 117.

السّائلِ الأبيضِ في موضعه؛ لأنَّه يكونُ في وقتٍ أطول، وفي سورة (المؤمنون) ذكرَ النَّظمُ الكريمُ أطوارَ خلقِ الإنسان، ثمَّ ختمَها بنهايةِ هذه الأطوار - وهو الموت - ثمَّ البعث؛ فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾، وذلك لإثباتِ عقيدةِ البعث.

وفي سورة (الحجّ) بدأ الحديثَ عن أطوارِ الخلقِ بإثباتِ عقيدةِ البعثِ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحجّ: 5]؛ أيْ: إنَّنا نُعلمُكم بأنّا خلقْناكم من ترابٍ مثل الرُّفات الَّذي تصير إليه الأجساد بعد الموت؛ أي: انْظروا في بدءِ خلقِكم فإنّا خلقْناكم من تراب، والَّذي خُلقَ من ترابٍ هو أصل النَّوع، وهو آدمُ عليه السلام وزوجُه حوّاء، وفي (المؤمنون) من طين، وأصلُ الطّينِ من ترابٍ مُزجَ بالماء[1].

وجاءت (ثمَّ) لتفيدَ التَّراخيَ في أطوارِ الخلقِ في السّورتَيْن، وفي سورة (المؤمنون) زيدتِ الفاءُ في ترتيبِ وتعقيبِ أطوارِ الخلق: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾؛ وليس في سورة (الحجّ) حرفُ الفاء؛ لأنَّه اكتفَى بـ (ثمَّ) الَّتي تفيدُ التَّراخيَ الزَّمنيَّ الحقيقيَّ دون إعادةِ ذكرِ كلِّ طَوْرٍ سابقٍ مع لاحقِه، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ [الحج: 5]، وزاد في بيانِ قِسْمي المضغةِ في (الحجّ) بقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: 5] ممّا لم يذكُرْه في (المؤمنون)، وذكرَ في (الحجّ) دون (المؤمنون) حرفَ (مِنْ) المكرَّرةِ أربعَ مرات، وهي ابتدائيَّةٌ وتكريرُها توكيد.

وفي (المؤمنون) قال: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ وهو الرَّحِمُ الَّذي صرَّحَ به في (الحجّ) بقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: 5] وختم في (المؤمنون) بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، وفي (الحجّ) بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: 6]؛ أيْ: بأنَّ اللّه هو الخالقُ الحقّ - لا أحدَ سواه - الَّذي خلقَ تلك الأطوارَ حتَّى تمَّ خلقُ الإنسان، فخرج من رَحِمِ أمّه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾.

وسرُّ ما في: (الحج) أنَّ السّورة صُدِّرت بالتّخويف والإنذار والتّهديد والتّرهيب من أهوال الآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج: 1 - 2] إلى آخره.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 196 - 197.

ثم ذكرت السّورةُ الذين يجادلون في اللّه بغير علم، وشيئًا من أحوالهم؛ فكان الخطاب المُسيطِر على السّياق خطاب الجلال؛ فلهذا صُدِّر الحديث عن نشأة خلق الإنسان بخطابٍ عامٍّ للنّاس كلِّ النّاس كما في صدر السّورة، وبما هو امتداد لسياق السِّباق من كون المخاطبين في ريبٍ من البعث؛ حتى تطَّردَ لُحمة السّياق، ويحصل التَّماسك المعنويّ بين أجزاء معاني الكلام، ولهذا أيضًا عُبِّر بالتُّراب دون الطّين؛ تناسبًا مع عموم الخطاب للناس كلّ الناس؛ لأنّ الذي خلق من تراب هو أصل الخليقة؛ وهو آدم، واللّه قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59]، وهذا الخطابُ العامُّ غابَ في سورةِ: (المؤمنون)؛ فلم يرِد فيها ذِكرُ التراب، وإنّما ورَد فيها ذكرُ الطّين، وكُرِّرت: (مِن)، وخُتم الكلامُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: 6]، وزيد معنى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5]؛ لأن المخاطَب أهلُ جدالٍ في اللّه بغير علم؛ فكانوا فقيرين إلى التّحقيق والتّوكيد، وإلى هذا الختم، وإلى هذا التفصيل بهذا المعنى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5].

وذِكرُ: ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾ [الحج: 5] في: (الحجّ) هو البلاغة؛ لأنّها قد سُبِقت بذِكر قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: 2] إلخ؛ فكأنَّ الاقتران بين ذِكر ذلك وذِكر الأرحام في سياقٍ واحدٍ مع تقارب موقع الطّرفيْن يومئ إلى معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: 101]، وهذا من وجوه التّناسب بين: (الحج) و(المؤمنون)؛ ففي الثّانية إفصاح بما ألمحت إليه الأولى وأجملته.

وسِرُّ ما في سورة (المؤمنون) أنَّها صُدِّرت بالحُكم على المؤمنين الرّاسخين في مقام الإيمان بالفلاح، ثم شرعت في تفصيل ذلك؛ ببيان أسباب الفلاح وطُرقه ومسالكه وصفات أهله، ثم خَتمت هذا المقطع بقرار أهل الفلاح واستقرارهم في الفردوس التي ورثوها، وهم فيها خالدون؛ فكان من البلاغة والتّناسب أن يتأخَّر ذِكرُ المُستدلّ عليه من البعث، وأن يتقدّم عليه دليله؛ لأنّ ذلك هو الأبرُّ بهدوء السّياق سياق الفلاح والجمال والإيمان، وأمّا في (الحجّ) فالسّياق للجلال والتّهديد، وأن يُقال: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ تناسبًا مع تمكين اللّه لهؤلاء المؤمنين الفالحين في الفردوس، وأن يُقال: ﴿مِّن طِينٍ﴾ لا (من تراب)؛ لأنّ في الطّين استحضارًا للماء، والماءُ أصل كلِّ شيءٍ حيٍّ، والحياة الحقيقيّة هي

التي يعلوها الفلاح والنّجاح، وإن كان الختم بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾؛ لأنّه ألصق بسياقٍ يشيع فيه الفلاح؛ فقد روعي فيه ذلك، وروعي فيه أيضًا مقصدُ الاستدلال على البعث.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنشاء والجَعْل والخلق والبَرْء والذَّرْء:

الخَلْقُ أقوى لأنَّه خـاصٌّ بـالـلـه، ويتبعُه الإنشاءُ والجَعْلُ والبَرْءُ والذَّرْء

الإنشاءُ: هو الإحداثُ حالًا بعد حالٍ من غيرِ احْتذاءٍ على مثالٍ، ومنه يُقال: نشأ الغلام، وهي ناشئ: إذا نَما وزادَ شيئًا فشيئًا، والاسْمُ: النُّشوء، ويمكنُ أن يكونَ الإنشاءُ ابْتداءَ الإيجادِ من غيرِ سببٍ[1].

والجَعْلُ: تغييرُ صورةِ الشَّيء بإيجادِ الأثَرِ فيه وبغيرِ ذلك، نقول: جعلَ الطّينَ خَزَفًا، وجعلَ السّاكنَ مُتحرِّكًا، والجَعْلُ: يكون بمعنَى الإحداث، وهو قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [السَّجدة: 9]، ويجوز أن يُقال: إنَّ ذلك يقتضي أنَّه جعلَها على هذه الصِّفةِ الَّتي هي عليها، كما تقول: جعلتُ الطّينَ خَزَفًا، والجَعْلُ يدلُّ على الاتّصال، ولذلك جُعِلَ طَرَفًا للفعل، فتستفتحُ به؛ كقولك: جعلَ يقول، وجعلَ يُنشِد، وجاء أيضًا بمعنَى الخبر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزُّخرف: 19]؛ أيْ: أخبروا بذلك، وبمعنَى الحُكْم في قوله تعالى: ﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ [التَّوبة: 19]؛ أيْ: حكمتُم بذلك، ومثله: جعلَهُ اللّه حرامًا وجعلَه حلالًا؛ أيْ: حكمَ بتحليلِه وتحريمه، والجَعْلُ أصلُ الدَّلالةِ على الفعل؛ لأنَّك تعلمُه ضرورةً، وذلك أنَّك إذا رأيتَ دارًا مُهدَّمةً، ثمَّ رأيتَها مبنيَّةً علمتَ التَّغيُّرَ ضرورةً، ولم تعلم حدوثَ شيءٍ إلّا بالاسْتدلال[2].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 80، والرّاغب، المُفردات: (نشأ).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 376 - 377، والرّاغب، المُفردات: (جعل).

والخلقُ: التَّقديرُ المستقيم، يُقال: (خلقتُ الأديمَ)؛ إذا قدَّرتَه خُفًّا أو غيرَه، ويُستعملُ في إبداعِ الشَّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احْتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، ويُستعملُ في إيجادِ الشَّيءِ من الشَّيء؛ نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النِّساء: 1]، وليس الخلقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى، ولهذا قال تعالى في الفَصْلِ بينهَ وبين غيرِه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النَّحل: 17][1].

والبَرْءُ: هو تمييزُ الصّورة، وقولُهم: بَرَأ اللّهُ الخلقَ؛ أيْ: ميَّزَ صوَرَهم، وأصلُه: القَطْع، ومنه البراءةُ؛ وهي قطعُ العلَقة، وبَرِئتَ من المرض، كأنَّه انقطعتْ أسبابُه عنك، وبَرِئتَ من الدَّيْن، وبَرأ اللَّحمَ من العَظْم: قطعَه، وتبرَّأ من الرَّجُلِ إذا انقطعتْ عصمتُه منه[2].

والذَّرْءُ: الإظهارُ، ومعنَى ذَرَأ اللّهُ الخلق: أظْهرَهم بالإيْجادِ بعد العدَم، ومنه قيل للبياض: الذَّرْأة؛ لظُهورِه وشُهرتِه، ومِلحٌ ذَرآنيٌّ لبياضِه[3].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 224، والرّاغب، المُفردات: (خلق).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 95.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 241.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»